خيرة العقول المسلمة
في القرن العشرين



خيرة العقول المسلمة في القرن العشرين

محمد بن المختار الشنقيطي





المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

ملاحظة من المؤلف

هذه فصول خفيفة القراءة، كثيفة المضامين، حاولتُ فيها التعريف بعدد من خيرة العقول المسلمة في القرن العشرين، والكشف عن جوانب من ثمار فكرهم، ومكنون حياتهم.

ولم ألتزم في هذه الفصول بالطريقة الأكاديمية الباردة، من التصنيف المنهجي والتوثيق العلمي، بل صُغتُها صياغة انسيابية، تسهّل القراءة الطليقة، وتيسِّر الاعتبار بحياة هؤلاء الأعلام الثرية بالعلم والعمل.

وقد اخترتُ هؤلاء السبعة، من بين علماء الإسلام ومفكريه في القرن العشرين، بناء على معايير

ثلاثة، هي: الجمع بين ثقافتيْ الشرق والغرب، وبين الفهم الشرعي والموقف الشرعي، وبين عمق الفكرة وإشراق الروح.

على أن النية هي التوسع في الطبعات القادمة من الكتاب، وإضافة عقول مسلمة أخرى لم يتَّسع الوقت للكتابة عنها الآن، أو لم تتيسر المصادر اللازمة لذلك.

وأرجو أن تُعين هذه الفصول الشباب المسلم المتوثب لاستئناف مسيرة الحضارة الإسلامية على الإلمام السريع بحياة هؤلاء الأكابر، ثم ببعض الأفكار الكبرى التي صاغوها، لعل ذلك يستحثه على البحث بنفسه عن المزيد من نفائس الأفكار التي خلفوها لنا في كتبهم، والعبرة التي تنبض بها سِيَر حياتهم.

وأسأل الله ﷻ الذي وفَّقنا للتعريف بهؤلاء الأكابر من أهل العلم والإيمان أن يجمعنا والقراء

الكرام بهم في مقعد صِدْق عند مليك مقتدر.. فهو الكريم المتفضل بكل خير، لا شريك له.

محمد بن المختار الشنقيطي
الدوحة، بتاريخ
٠٥ شعبان ١٤٣٧هـ
١٢ مايو ٢٠١٦ م

(١)
محمد إقبال
أعجميٌّ ذو لحْنٍ حجازيٍّ

كان الفيلسوف ابن سينا يقول: «اللَّهُمَّ إني أسألك عمراً عريضاً».. أي عمراً حافلاً بالإنجاز. ويمكن القول إن حياة الفيلسوف الشاعر محمد إقبال قد تحقق فيها هذا الدعاء. ولد إقبال في مدينة «سيالكوت» بمقاطعة البنجاب الهندية عام ١٨٧٧، لأسرة من البراهمة النبلاء اعتنقت الإسلام في عصور متأخرة. وكان والده متصوفاً عميق التدين. درس إقبال في مدرسة انكليزية ثم في كلية حكومية بلاهور عاصمة البنجاب، وتميز في اللغتين العربية والانكليزية، وحصل على شهادتيْ الباكالوريوس والماجستير في

الفلسفة. فعمل مدرساً للتاريخ والفلسفة السياسية في الكلية الشرقية بلاهور، وبدأ ينشر بواكير شعره الذي هز الحياة الأدبية والفكرية في الهند. رحل إلى أوربا عام ١٩٠٥، فتابع تحصيله العلمي في جامعتي كامبريدج البريطانية وميونيخ الألمانية حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة وشهادة المحاماة في القانون، وعاد إلى الهند عام ١٩٠٨ بحصاد علمي وافر في برهة زمنية وجيزة.

عمل إقبال بعد عودته إلى الهند محاميا، لكن اهتمامه بالفلسفة والشعر والسياسة شغله عن ذلك. فانضم إلى عدد من الجمعيات والمنظمات الساعية إلى حماية الوجود الإسلامي في الهند بعد أن بدأت بواكير تقرير المصير الهندي ورحيل المستعمر البريطاني تلوح في الأفق. وكان إقبال أول من اقترح فكرة تأسيس دولة خاصة بالمسلمين في القارة الهندية، تحفظ وجودهم وهُويتهم، وتمنع تراثهم وحضارتهم الإسلامية من الاندثار، وهو الذي أقنع السياسي البارز محمد

علي جناح بهذه الفكرة عبر المراسلات بينهما، فحولها جناح إلى برنامج عملي. وبعد عمر عريض من العلم والعمل رحل إقبال عن هذه الدنيا فجر يوم ١٩ ابريل ١٩٣٨. وتجسدت فكرته عن الدولة المسلمة في القارة الهندية يوم ميلاد باكستان، بعد وفاته بعقد من الزمان.

بحر من الأفكار والأشعار

خلَّف إقبال بحراً من الأفكار والخواطر البديعة التي ضمنها دواوينه الشعرية وكتبه النثرية. فقد ألف تسعة دواوين شعرية، ضمت حوالي اثني عشر ألف بيت من الشعر، منها حوالي سبعة آلاف بيت بالفارسية، وخمسة آلاف بيت بالأوردية. ومن دواوينه: «جناح جبريل» و«رسالة المشرق» و«ضرب الكليم» و«هدية الحجاز» و«الأسرار والرموز». كما ألف بضعة كتب نثرية تبرهن على أنه كان متمرسا بفلسفة الشرق والغرب. وأهم هذه الكتب: «إعادة بناء الفكر الإسلامي» Reconstruction of Islamic Thought

و«تطور الميتافيزيقا في بلاد فارس»The Development of Metaphysics in Persia. وقد ترجم الكتابان إلى العربية بعنوان «تجديد الفكر الديني في الإسلام» و«تطور الفكر الفلسفي في إيران» على الترتيب. كما ترجمت إلى العربية كل دواوين إقبال الشعرية، وعددها تسعة دواوين. ولعل أحسن الترجمات العربية لشعر إقبال هي ترجمة سفير مصر بباكستان في الخمسينات، الأديب عبد الوهاب عزام، والشيخ الأزهري الضرير الصاوي شعلان، ثم الصياغات الشعرية البديعة التي صاغ فيها الأديب السوري زهير ظاظا الترجمة النثرية لديوان (جناح جبريل)، ومنها نقتبس جُلَّ الأبيات الشعرية الواردة في هذا المقال.

هندي الهوية حجازي الهوى

كتب أحد المؤلفين الهندوس ساخرا من إقبال، فقال: إن إقبال «رجل ظمآن على ضفاف نهر (الغانغ) يبحث عن الماء في صحراء العرب». ونسي الكاتب

المغرور أن صحراء العرب عند إقبال هي النبع الذي استقت منه كل الإنسانية، فارتوت بماء الإسلام الزلال. كما نسي أن الصحراء عند إقبال هي رمز الرجولة والشجاعة والشهامة، وهذه هي الفضائل التي تعبر عن فلسفة «إثبات الذات» التي نادى بها إقبال. واسمع قول إقبال في قصيدته «الشاهين»، وهو يفتخر بصحرائه، ويزهو بكبريائه:

أنا نجل الصحراء والزهد ديني

وهما في سجيَّتي ودمائي

أجهلُ الزهرَ والنسيمَ وما في

لوعة العندليب عند المساءِ

وجمال البستان يُغري، ولكن

ليس يغري مُنَشَّاً في العراءِ

أين مجدي إذا شَقِيتُ لجوع

وأذلَّتْ حمامة كبريائي؟

نشأ إقبال في أجواء الثقافة الهندوسية، ثم اغترف

الثقافة الغربية من منبعها، وارتضع لبانها، في وقت قلَّ فيه وجود المسلم الملمِّ بثقافة الغرب بعمق... فما زاده كل ذلك إلا ولَهاً بجمال الإسلام، وإيمانا بأن رسالة الإسلام لا تطاولها رسالة أخرى، وأن اللحن الإسلامي لا يضاهيه لحن آخر. وفي ذلك يقول:

ليس في ضوضاء هذي الأممِ
نغمةٌ إلا أذان المسلمِ

وسواء كان طالباً في بريطانيا، أو باحثاً في ألمانيا، أو سائحاً في إيطاليا، كان قلب إقبال دائماً معلقاً بصحراء الحجاز وجباله، ولم يجد في بلاد الشرق والغرب ما يسحر قلبه أو يسبي لبَّه مثل ما فعلتْ به أرض الحجاز. كان إقبال رجل المحبة بحق، أحب الإسلام وكل ما يمت له بصلة، وأحب العرب لارتباطهم بتاريخ الإسلام وثقافته. لكن حبه تجلَّى أعمق ما تجلَّي في تعلقه بالحجاز، أرض النبوة ومهبط الوحي. كان هنديَّ الهوية حجازيَّ الهوى،

وفي ذلك كتب:

أنا أعجمي الحب إلا أنني

أطلقت في الحرم الشريف

لساني

كم ثوبَ إحرام على متضرِّع

مزَّقْتُه باللحن من ألحاني

وكتب:

صوت قيثارتي التي سمعوها

أعجميٌّ لكنَّ لحْني حجازي

وكانت أمنية إقبال في هذه الحياة أن يكون جذوة من جذوات الحرم الشريف. وفي ذلك يقول:

تمعَّن بقلبك واستفته

ولا تسأل الشيخ عن شانهِ

خلا حرم اللَّه من أهله

فكن أنت جذوة أركانهِ

وحينما رحل إقبال عن عالم الفناء إلى عالم البقاء يوم ٢١ ابريل ١٩٣٨ حمل معه الوله المزمن بالحجاز، فكان من آخر ما نطق به وهو يحتضر بيتيْ شعر يقول فيهما:

نغماتٌ مضيْنَ لي هل تعودُ؟
نسيمٌ من الحجاز يعودُ؟

آذنَتْ عيشتي بوشْك رحيل
هل لعلم الأسرار قلب جديدُ؟

عز العبوديَّة لله

يمكن تلخيص فلسفة إقبال ونظرته للحياة في ثلاث كلمات هي «عز العبودية لله». ويعبر إقبال عن هذه الفكرة أحياناً بمصطلح «زهد الملوك» و«زهد المقتدر». وتتألف فلسفة عز العبودية من شقين: أحدهما يدعوه إقبال «نفي الذات»، والثاني يدعوه «إثبات الذات». والمقصود بنفي الذات: التواضع والخضوع المطلق في العلاقة بالخالق، وبإثبات

الذات: العزة والثقة بالنفس في العلاقة بالمخلوق. فالعزة عند إقبال ليست فكرة ساذجة من الاستعلاء على الغير، أو الانكفاء على الذات، بل هي مفهوم مركَّب من العلاقة بالخالق وبالمخلوق. وقد كان إقبال في مسار حياته مثالاً للمسلم المعتز بدينه، في وقت قلَّ فيه وجود الأعزة بين المسلمين. وما ذلك إلا لأن إقبالاً كان يرى كل ما سوى العبودية لله ذلّاً وتسولاً ومهانة. وفي ذلك يقول:

أنـــت عـــبـــد الـــلَّـــه فـــالـــزمْ
لـــيـــس لـــلـــحُـــرِّ تـــحـــوُّلْ

ما سوى عز العبودية للَّه تسوُّلْ

على درب القلب والحب

كان إقبال مثالاً للعالم المتبحر ذي العقل الكبير، فقد تعلم سبع لغات، وأتقن عدة تخصصات. على أن روح إقبال ومرآة فكره الصافية تتجلى في شعره أكثر من نثره، فقد آثر لغة القلب على لغة العقل ـ رغم

تمرُّسه بالصنعتين ـ فاختار الشعر مطية لأفكاره، لأن الشعر دفقات من الوجدان وومضات من العبقرية تقتحم القلوب دون استئذان، بينما يدخل الفكر إلى العقول ببرودة، وعبر مسار متعرج من المقدمات المنطقية الجافة. وقد قال إقبال بحق: «إن جفاف المنطق لا يقْوى على مقارعة نضرة الشعر».

آمن إقبال بأن أساس الالتزام الإسلامي هو المحبة القلبية الوالهة، لا المعرفة الذهنية الباردة. فالحب أعمق أثراً من العلم، والقلب أقوى سلطاناً من العقل، وما يحتاجه المسلم للوصول إلى مقام «عز العبودية لله» أكثر بكثير من مجرد المعرفة الذهنية بالإسلام، أو الإلمام التاريخي بأيام المسلمين. إنه يحتاج إلى تمثل تعاليم الإسلام بقلبه، حقائق من لحم ودم، لا قوالب ذهنية مجردة. لم يكن إقبال في يوم من الأيام حيادياً بين العقل والقلب، بل مال إلى جانب القلب دائما. وقد عبر عن ذلك واصفا تجربته الشخصية في الحياة، فقال:

مـضـى إقـبـال هَـوْنـاً فـي

دروب الـفـكـر واجـتـازا

فـلـمـا جـاء درب الـحـبِّ

مـال الـقـلـب وانـحـازا

وفي مقارنة بديعة بين القلب باعتباره مستودع الأسرار والحقائق، والعقل باعتباره الدليل إلى سطحها الخارجي، يقول إقبال إن ما يحتاجه المسلم اليوم هو «دواء البصيرة» الذي يحرر من «داء البصر»، وأن القلب المؤمن المفعم بحب الله ورسوله هو مصدر الهداية ومنبع الرشد:

دواء الـبـصـيـرة هـذا الـدواءْ

رجـاؤك فـي كـشـف داء الـبـصـرْ

ومـا الـعـقـل إلا جـدال الـعـلـومْ

وحـرب الـظـنـون ورجـم الـنـظـرْ

مـصـيـرك أعـظـم مـن وقـفـة

وأول مـعـنـاه ذوق الـسـفـرْ

وسر اللآلئ خُلْد البريقْ

وإلا فمعدنها من حجرْ

وما هي جدوى دم في العروقْ

إذا كان يطفئ نار الفكرْ؟

على أن لغة القلب والحب عند إقبال لا شأن بخضوع الإنسان لأهوائه الأرضية. بل الحب عنده قرين للكرامة ومرادف للعز، ذلك العز الذي يجسِّده الخليل عليه السلام وهو يحطم الأصنام:

وجائزة الحرِّ غيرُ الخمورْ

وغير الغواني وغير الخيامْ

على الطُّعْم يسقط من لا يطيرْ

ومن لا يحلِّق فوق الغمامْ

❊ ❊ ❊

هو الحب ينسيك وقع الجراحْ

وتفضح سرَّك آثارُهُ

وما الحب إن لم تمتْ عزةً؟

وما العيش جلَّلَه عارُهُ؟

رحم الله العلامة محمد إقبال.. الشاعر الأعجمي ذو اللحن الحجازي.

(٢)
محمد عبد الله دراز
عاشق القرآن الكريم

ولد العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز عام ١٨٩٤، بمحافظة (كفر الشيخ) المصرية. ونشأ في أسرة ذات علم وورع. فوالده الشيخ عبد الله دراز من علماء الأزهر المبرَّزين، وهو شارح كتاب «الموافقات» للإمام الشاطبي. أكمل دراز حفظ القرآن الكريم وهو فتى يافع لما يكمل العقد الأول من سنيه بعد، وحصل على شهادة العالمية عام ١٩١٦. عمل مدرساً بجامعة الأزهر عام ١٩٢٨، وسافر إلى الحج عام ١٩٣٦. وفي العام ذاته حصل على منحة دراسية للدراسة بجامعة السوربون الفرنسية. فأقام في فرنسا

اثنتي عشرة سنة مضت كلها جداً وانكباباً على استيعاب الثقافة الغربية من منابعها الأصلية، وتأملاً مقارِناً لتلك الحصيلة بمبادئ علم الأخلاق في القرآن الكريم.

حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون، ونالت أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان «أخلاق القرآن» La Morale Du Koran إعجاب كبار المستشرقين الفرنسيين، ومنهم ليوي ماسينيون وليفي بروفنسال. وكانت مناقشتها يوم ١٥/١٢/١٩٤٧. وبعد عودته من رحلته العلمية المديدة، أصبح دراز عضوا في هيئة كبار العلماء عام ١٩٤٩. كما عمل محاضرا بعدد من الجامعات المصرية في تاريخ الأديان والتفسير وفلسفة الأخلاق. انتقل العلامة دراز إلى ربه في مدينة لاهور الباكستانية عام ١٩٥٨ وهو مشارك في مؤتمر الثقافة الإسلامية هناك، فنعاه الأكابر في مصر والعالم الإسلامي.

عِرْق مغاربي

ويبدو أن أسرة دراز نزع بها عرق وقرابة عقلية خاصة مع المغرب العربي، ربما لانتساب الأسرة تقليدياً إلى المذهب المالكي. فقد شرح الشيخ عبد الله دراز ـ والد الدكتور محمد عبد دراز ـ كتاب (الموافقات) لفقيه الأندلس أبي إسحاق الشاطبي، وحقق دراز الابن الكتاب، ثم كتب دراسة عن كتاب (الاعتصام) للشاطبي أيضاً، وحاول توليد أفكار الاعتصام وتجديدها في كتابه (الميزان بين السنة والبدعة) الذي توفي قبل إكماله، رحمه الله.

وحينما كان دراز يتابع دراسته في فرنسا منتصفَ القرن العشرين ارتبط برباط وثيق مع الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي، وظهر بين الرجلين شبَه كبير في الاهتمام الفكري، وفي النتائج التي توصلا إليها، خصوصاً في مجال تجديد الدراسات القرآنية. وقد صرح دراز بذلك في تقديمه لكتاب بن نبي: «الظاهرة القرآنية»، ولا تخطئ عين المقارِن لكتاب بن نبي هذا

مع كتابيْ دراز: «النبأ العظيم» و«مدخل إلى القرآن الكريم» القرابة الفكرية بين هذين العلَمين من خيرة العقول المسلمة في القرن العشرين.

على أن الأمر تجاوز الرباط الفكري والقرابة العقلية إلى التضامن الأخوي والنضال المشترك، فقد دراز وقف بشجاعة مع المطالبين باستقلال دول المغرب العربي عن فرنسا، وخاطر بوضعه طالباً ومهاجراً مقيماً في فرنسا في سبيل ذلك. وأرجو أن تكون هذه الأسطر رداً لشيء من الجميل العلمي والعملي الذي ندين به في المغرب العربي، وتدين به كل الأمة، لهذه الأسرة العلمية اللامعة.

نفس أبيَّة

كان دراز يحمل بين جنبيه نفسا أبيَّة، وكان يتصف بشمائل نادرة، أجملها شيخ أهل قَطَر عبد الله الأنصاري، فعدَّ منها: «الفطنة، والذكاء، والحِلْم، والأناة، والتواضع، والوداعة، والوفاء، والجرأة،

والإقدام، والشهامة، والصلابة في الحق، ولباقة الحديث، ولين العريكة، والحدب على المرافقين».
كان يدرك قيمة الرسالة القرآنية التي يحملها، كما كان يحمل همَّ الأمة أينما حل وارتحل، حتى كتب عنه تلميذه العلامة يوسف القرضاوي: «ما حدثنا وجلسنا إليه إلا وجدناه مشغولا بأمر الإسلام وهموم المسلمين.» ومن مظاهر عزة نفسه دعمه العلني ـ وهو مقيم بفرنسا ـ لحركات التحرر في المغرب العربي الذي كانت فرنسا تحتله آنذاك. وحينما عرض عليه رجال الثورة المصرية أن يكون شيخاً للأزهر اشترط أن يتمتع الأزهر باستقلالية أكاديمية عن السلطة. ولما رفض رجال الثورة ذلك اعتذر دراز عن قبول المنصب، وأصرَّ على رفضه له رغم المحاولات والعروض المتكررة.

فكر تركيبي

كان دراز «ابن الأزهر، وابن السوربون» كما

وسمه العلامة القرضاوي. وقد أتاحت له الدراسة المعمَّقة لكلٍّ من الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية من منابعهما الأصلية بناء رؤية تركيبية تحليلية فريدة، بعيداً عن السطحية التبسيطية، وعن «سوء الهضم العقلي» الذي أصاب الكثيرين ممن وقفوا عند حدود الثقافة الموروثة الراكدة أو الغريبة الوافدة. كان متعمقا في روحانيات الغزالي والحكيم الترمذي وأبي طالب المكي، متضلعاً بفلسفة «ديكارت» و«كانت» و«برجسون». وقد امتاز دراز بفضل هذا الفكر التركيبي برحابة الأفق، وعمق التحليل، ودقة الاستدلال، مع حجاج مقنع، وبلاغة ساحرة استمدَّها من بلاغة القرآن الكريم.

عاشق القرآن

كانت أهم سمة من سمات شخصية دراز، والمنبع الذي فاضت منه كل مآثره العلمية والعملية هي الوَلَه بالقرآن الكريم. كان رجل القرآن بحق، فقد

ملكت عليه محبة القرآن لبه، وشغفت قلبه، فكان شغله الشاغل، لا يكاد يُرى إلا وهو منكب على قراءته وتدبُّره، أو قائم يصلي به. وقد انصب اهتمامه العلمي على القرآن حصراً، فلا يكاد يوجد له عمل علمي إلا والقرآن محوره ولبابه. ولا يستطيع دراز كفكفة عشقه لكتاب الله وتعلقه القلبي به، فهو يتتبَّع ألفاظ القرآن تتبع الوالِهِ، ويصفها بحق بأنها «حبات درية».

ثابر دراز على قراءة ستة أجزاء من القرآن كل يوم دون كلل أو ملل. وكان معظِّماً للقرآن، يسجد سجود التلاوة أثناء محاضراته في التفسير، ويطلب من طلابه التوضأ قبل بداية المحاضرة استعداداً لذلك. وقد كتب عنه رفيق رحلته إلى المؤتمر الإسلامي بلاهور، الشيخ محمد أبو زهرة: «كان يؤمُّنا في صلاة العشاء، ثم يأوي كل منا إلى فراشه، ويأوي هو إلى صلاته وقرآنه. وكنت لا تراه إلا قارئاً للقرآن أو مصلياً».

منهج وسطي

كان الشيخ دراز إماماً من أئمة الوسطية الإسلامية السمحة. وقد تجلت وسطيته في تناوله لعدد من الثنائيات الكبرى التي حيرت الفكر الإسلامي واستنزفته. وهي: العقل والنقل، السنة والبدعة، الجبر والاختيار، السلم والحرب، العلم والدين، الخلق والقانون. . .إلخ. وقد تتبعتُ تناول دراز لهذه الثنائيات الكبرى بتفصيل في دراسة عنه ستصدر قريباً إن شاء الله عن (مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد) بالدوحة. ولا يسمح المقام بأي بسط هنا، وإنما أنوه الآن ببعض إشاراته في مسألة العقل والنقل. فهو يرى أن «التمييز بين الخير والشر. . . إلهام داخلي مركوز في النفس الإنسانية قبل أن يكون شِرْعة سماوية». بيد أن الشرع الإلهي «يكمل الشرع الأخلاقي الفطري»، وهي تكلمة ضرورية للفطرة الإنسانية التي تشوبها شوائبُ صادَّةٌ عن الحق والخير، أو ظلمات قائدة إلى الحيرة والاضطراب.

وبدون نور الوحي، فإن البشر يظلون في صراع دائب حول تعريف الخير والشر «ولسوف تُقاوَم عقول بعقول، كما تُقاوَم عواطف بعواطف». وقد أفادنا تاريخ البشرية بضروب من هذا التخبط لا حدود لها، من تقشف (النرفانا) البوذية، إلى إباحية الرواقية اليونانية. وهي كلها شهود على أن نور الوحي ونور الفطرة يجب أن يظلا فرسيْ رهان، كما أراد لهما خالق الشريعة الفطرية، منزل الشريعة السماوية.

ريادة وتجديد

لا يكاد عمل من أعمال دراز الفكرية يخلو من نظرات تجديدية ثاقبة. لكن تجديده تجلَّى أكثر ما تجلى في الدراسات القرآنية. ففي هذا المضمار يمكن القول دون مجازفة إن دراز أسس علمين جديدين، هما علم «أخلاق القرآن» وعلم «مصدر القرآن». ففي الأول كتب كتابه (دستور الأخلاق في القرآن) وفي الثاني ألف كتابيه: (النبأ العظيم) و(مدخل إلى القرآن

الـكـريـم). وقـد أدرك دراز أنـه يـسـلـك دروبـاً غـيـر مطروقة، وأن عليه أن يبدأ عملاً تأسيسياً في هاذين العلمين. ومن هنا كانت إضافته في هذا المضمار ثمينة حقاً، وهي حصيلة جهد ومعاناة فكرية عميقة لا يقدرها إلا من تمرَّس بكتبه واكتشف ما فيها من أصالة وعمق وصدق.

ويتجلى تجديد دراز في علوم القرآن من خلال المنهج الذي اتبعه. فقد اعتاد علماء الإسلام أن يبرهنوا على أصالة القرآن الكريم من خلال المدخل اللغوي البياني بالأساس. أما دراز فانطلق من الدراسة التحليلية للرسالة القرآنية منطقياً وتاريخياً. وهذه منهجية تجديدية مفارِقة للمنهج المتوارث. ومن ثمراتها نقل القرآن من السياق الثقافي العربي، ووضعه في سياق العالمية.

رحم الله الدكتور محمد عبد الله دراز.. عاشق القرآن الكريم.

(٣)

مالك بن نبي
فيلسوف الحضارة الإسلامية

ولد المفكر الإسلامي مالك بن نبي في مدينة قسنطينة الجزائرية عام ١٩٠٥ لأسرة متواضعة الحال، حيث كان أبوه عمر موظفا بسيطاً في إدارة مدينة تبسَّة، وأمه زهيرة ربة بيت تعمل في الحياكة. لكن الأسرة كانت عميقة التدين، عزيزة الأنفس. وقد تحدث مالك في مذكراته (شاهد القرن) عن هجرة أجداده لأمه إلى تونس والجزائر بداية الغزو الفرنسي، خوفا من انتهاك أعراض بناتهم على أيدي الجند الفرنسيين المتغطرسين. كانت أحاديث جدته هي النافذة التي فهم منها مالك جرائم الاستعمار الفرنسي،

وأهمية الاعتزاز بالعقيدة الإسلامية واللغة العربية، ثم كانت صلة أسرته بالحركات الإصلاحية وبالطرق الصوفية، خصوصاً (الزاوية العيسوية)، دافعاً له إلى الاهتمام بقضايا الإصلاح والنهضة والتجديد. ثم كان حرص والدته على تعليمه القرآن ـ حتى إنها رهنت سريرها مرة لدفع أجرة المعلم ـ دافعاً آخر عمق في نفسه حب القرآن وحمْلَ راية الدفاع عنه ضد المستشرقين في كتابه القيم «الظاهرة القرآنية». جمع مالك بين الدراسة في الكتَّاب وفي المدارس الفرنسية بالجزائر، ثم تخرج من معهد إسلامي بالجزائر (مدرسة سيدي الجليس) وواصل دراسته العليا في فرنسا فتخرج مهندساً عام ١٩٣٥. والحق أن مالكاً كان معلم نفسه، فولعه بالقراءة شديد، وجلده في التعلم الذاتي لا يضاهى، وذلك أكبر مصدر من مصادر المعرفة لديه.

بين المشرق والمغرب

بعد ثلاثين عاما من العيش في فرنسا، رحل

فيلسوفنا إلى مصر عام ١٩٥٦. وفي القاهرة عمَّق مالك معرفته باللغة العربية، وقد كانت الفرنسية غالبة على لسانه وقلمه من قبل، وهناك ترجم له د. عبد الصبور شاهين عدداً من أهم كتبه ترجمة بديعة، فاشتهر ذكر مالك وتعرَّف عليه الأكابر بمصر والشام. كما بنى مالك صلة بالرئيس عبد الناصر، وخصصت له القيادة المصرية راتباً شهرياً مكنه من التفرغ للكتابة والمحاضرات خلال سبع سنين.. وفي مرحلته القاهرية اندلعت الثورة الجزائرية المجيدة، فجرد مالك قلمه لها، وكتب الكثير عنها. عاد مالك إلى الجزائر عام ١٩٦٣ وفيها تقلد عدة مناصب أكاديمية، منها منصب مستشار للتعليم العالي، ثم مدير جامعة الجزائر، ثم مدير التعليم العالي، لكنه استقال عام ١٩٦٧ مؤثراً التفرغ للعمل الفكري إلى أن وافاه الأجل يوم ٣١ أكتوبر ١٩٧٣. وخلف مالك ثروة فكرية رائعة من حوالي ثلاثين كتاباً، نشر منها حتى الآن حوالي العشرين، ولا تزال بعض أعماله مخطوطة

لم تنشر. ويمكن اعتبار أهم أعماله هي: «الظاهرة القرآنية»، و«وجهة العالم الإسلامي» و«شروط النهضة» و«مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي».

ثائر موطَّأ الأكناف!

يقول علامة فاس ومؤرخها الدكتور عبد السلام الهراس ـ وهو ممن عايشوا مالك بن نبي في نفس المنزل بمصر ـ إن مالكاً كان متواضعاً بسيطاً في حياته وعلاقاته الشخصية: «مالك بن نبي كان يعيش معنا بسيطاً جداً، البساطة التامة، كان عندما بدأ يتلقى النقود على كتبه، ويدفع حظه في البيت، فنحاسبه كما نحاسب بعضنا، فيخضع لنا ولا يرى في ذلك غضاضة. يقول: هل أساعدكم؟ فنقول: لا، ثم يثق فينا ثقة كبيرة...» لكن مالك كان عزيز النفس أبيّاً يعرف قيمة الفكر والعلم الذي يحمله. وكان فيه شدة وفورة غضب أحياناً، تجعل رفقاءه يتجنبونه حتى يهدأ غضبه. لكنه إذا لم يكن غاضباً فهو موطأ الأكناف،

رقيق القلب، شديد الوفاء لرفقائه. يقول الهراس: «ما أعتز به هو أن مالك بن نبي أبى أن يودِّعني في الدار بالقاهرة، عندما أتممت دراستي (ليسانس) وعزمت على العودة إلى المغرب. فأبى إلا أن يودعني في بورسعيد على باب الباخرة».

مُنير سبيل النهضة

يمكن إجمال الجهد التجديدي لمالك بن نبي في مجالين: مجال الدراسات القرآنية ومجال فكر النهضة. ففي الدراسات القرآنية ابتكر مالك ـ بالتوازي مع الدكتور محمد عبد الله دراز الذي قدم له كتابه «الظاهرة القرآنية» ـ منهجاً جديداً للبرهنة على أصالة الرسالة القرآنية، يعتمد التحليل المنطقي والتاريخي أكثر من التحليل البياني اللغوي. وفي مجال النهضة كتب مالك جل كتبه، وهو ما نركز عليه هنا.

لقد قدم مالك بن نبي إسهامات جليلة في تجديد الفكر الإسلامي المعاصر، وتنقية المنبع الفكري الذي

استمدت منه حركة النهضة منذ ختام القرن التاسع عشر. وأصبحت بعض المصطلحات التي نحتها مالك على كل لسان. ومن ذا الذي لم يسمع بمقولاته حول العلاقة بين «الاستعمار» و«القابلية للاستعمار»؟ والصلة بين «الأفكار الميتة» و«الأفكار المميتة»؟ ومراحل تطور الحضارة الإسلامية من «طور الروح/الصعود»، إلى «طور العقل/الامتداد»، إلى «طور الغريزة/الانحطاط»؟

وقد توصل مالك بن نبي إلى أن أزمة المجتمع المسلم هي أزمة منهجية عملية في الأساس، وأن التحدي الرئيس الذي يواجه المسلمين هو تحدي النهضة. وصاغ نظريته في التغيير الاجتماعي على أساس مبدإ الفاعلية. وقد أخذ مالك على بعض حركات الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامي مطلع القرن العشرين إغراقها في الحديث عن العقائد المجردة على طريقة علم الكلام القديم، وتفريطها فيما دعاه «الفكر الفني الذي يعجل بحركة التاريخ». ففقدت هذه الحركات رسالتها ودورها التاريخي، كما

يقول مالك، لأن «المسلم لم يتخل مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمناً.. ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي... وعليه فليست المشكلة أن نعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها، وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي. وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده».

تغيير جوهر الإنسان

وحين قارن مالك بين منهج محمد عبده ومنهج محمد إقبال اكتشف الفرق بين المدرستين: مدرسة كلامية تتعامل مع المشكلة الإسلامية في الإطار الذهني المجرد، ومدرسة عملية تهدف إلى تغيير جوهر الإنسان ومحيطه الاجتماعي. وقد كتب مالك عن ذلك يقول: «إن المدرسة الإصلاحية [بقيادة الشيخ محمد عبده] صاغتها بلغة علم الكلام، بينما صاغها إقبال في

مصطلحات أخرى، حين نبَّه على أن المطلوب ليس العلم بالله، ولكنه ـ في أوسع وأدق معانيه ـ الاتصال بالله. ليس المطلوب مفهوما كلامياً، ولكنه انكشاف للحقيقة الخالدة، وبحسب تعبيره هو: (تجلي هذه الذات العلوية))». ولذلك لا عجب أن المدرسة الإصلاحية بقيادة عبده «ظلت تعاليم تهدف إلى تخريج متخصصين بارعين، أكثر مما تتجه إلى تكوين دعاة مخلصين» حسب تعبيره. والمتخصص البارع الذي لا يحمل هما ولا رسالة، إنما يغذي وقود الجدل على حساب العمل.

وقد ذهب مالك بنْ نبي إلى أن المدرسة الإصلاحية كان في وسعها أن تؤثِّر في مسار المجتمعات الإسلامية تأثيراً أكثر إيجابية «لو أنها استطاعت أن تقوم بتركيب أفكارها، وتجميع عناصرها، لتوحد ما بين الأفكار الأصول التي ذهب إليها الشيخ محمد عبده، وبين الآراء السياسية والاجتماعية التي نادى بها جمال الدين، الأمر الذي

كان سيؤدي حتماً إلى طريق أفضل من مجرد إصلاح مبادئ العقيدة».

وكان إقبال قد سبق مالكاً في التشديد على أن النفوس المؤمنة إذا لم يشفها تدبر القرآن واستنطاقه بمنهجية عملية، فلا الذوق الصوفي (الكشف) بمغن عنها، ولا الجدل الكلامي (الكشاف) بنافعها. يقول إقبال في ديوانه: «جناح جبريل»:

نفسٌ إذا القرآن ما انتفعت به

لا الكشف ينفعها ولا الكشَّافُ

والسر في هذا التشخيص الذي اتفق عليه إقبال ومالك وغيرهما من خيرة العقول المسلمة، هو أن علم الكلام ـ الذي رمز إليه إقبال بكتاب «الكشاف» للزمخشري ـ يزيِّف المشكلة الإسلامية من أساسها، كما دلت عليه التجربة التاريخية للمسلمين «حيث لم يكن المتجادلون يبحثون عن حقائق وإنما عن براهين» كما يقول مالك. ذلك أن «علم الكلام لا يواجه

مشكلة الوظيفة الاجتماعية للدين»، وهي جوهر أزمة المجتمع المسلم الآن، ومن أجل استرجاعها ظهرت الحركات الإصلاحية المعاصرة، بل يشغل الناس بالجدل حول أمور غيبية لا مجال لحسمها من الناحية العلمية، ولا تترتب عليها ثمرة عملية.

رحم الله مالك بن نبي.. فيلسوف الحضارة الإسلامية.

(٤)

إسماعيل الفاروقي
حامل همِّ الشرق في الغرب

ولد الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي في مدينة يافا الفلسطينية عام ١٩٢١، وبدأ دراسته الإسلامية بالمسجد وفي البيت على يد والده الذي كان قاضياً شرعياً. وتابع دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس الدومينيكان الفرنسية، ثم حصل على الباكالوريوس في الفلسفة من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٤١. عمل في ظل الانتداب البريطاني محافظاً لمنطقة الجليل إلى حين ميلاد الدولة الصهيونية، فالتحق بالمقاومة برهة، ثم هاجر إلى أميركا حيث حصل على شهادتيْ الماجستير في فلسفة الأديان:

الأولى من جامعة إنديانا عام ١٩٤٩، والثانية من جامعة هارفارد عام ١٩٥١. وفي عام ١٩٥٢ حصل على الدكتوراه من جامعة إنديانا، وكانت أطروحته بعنوان: «نظرية الخير: الجوانب الميتافيزيقية والإبستومولوجية للقيم».

بعد تضلعه بالفلسفة الغربية وبتاريخ وتعاليم الديانتين اليهودية والمسيحية في دراسته بأميركا، أحس الفاروقي بالحاجة إلى تعميق معرفته بدينه الإسلامي، فرحل إلى مصر، ودرس في الأزهر أربع سنوات (١٩٥٤ ـ ١٩٥٨) بنى فيها ثقافة إسلامية رصينة، ثم عاد إلى الغرب وبدأ التدريس بجامعة ماكجيل الكندية، وباحثاً في كلية اللاهوت بالجامعة ذاتها، حيث أسفرت أبحاثه هناك عن كتابه القيم: (الأخلاق المسيحية: تحليل تاريخي ومنهجي لأفكارها المهيمنة). انتقل الفاروقي إلى باكستان عام ١٩٦١، ليساهم في تأسيس (معهد البحوث الإسلامية) في كراتشي، ثم عاد إلى أميركا أستاذا بجامعة شيكاغو

١٩٦٣ ـ ١٩٦٤، وفي جامعة سيراكيوز ١٩٦٤ ـ ١٩٦٨. ثم استقر قراره بجامعة تمبل التي مكث فيها حوالي ثمانية عشر عاماً من العام ١٩٦٨ إلى عام استشهاده ١٩٨٦.

السفير المغدور

من عادة الملوك الأقدمين أن لا يقتلوا السفراء الذين يحملون الرسائل بينهم، وهم يعتبرون هذا العرف السياسي من أمارات المروءة والشهامة. لكن سفير الشرق الإسلامي إلى الغرب المسيحي إسماعيل الفاروقي قتل غدراً وغيلة. جاء الفاروقي إلى الغرب حاملاً معه مظلمته من الشرق، فوجد الظلم في انتظاره في غرب أحلَّ عبادة إسرائيل محل ديانته المسيحية. ففي ليلة ١٨ رمضان ١٤٠٦هـ، ٢٧ مايو ١٩٨٦ م، قُتل إسماعيل الفاروقي طعناً بالسكاكين هو وزوجته الدكتورة لمياء الفاروقي ـ وهي عالمة متمرسة بالفن والعمارة الإسلامية ـ بسبب مواقفه الصلبة في الدفاع

عن قضيته وقضية شعبه الفلسطيني، وتعريته الأديولوجية الصهوينية وجذورها العنصرية، وبسبب عمله الدعوي الدؤوب لنشر الإسلام وثقافته في المجتمع الأميركي. بيد أن فكر الفاروقي لم يمت، بل شكل زاداً على الطريق الشائك الذي اختطه، طريق كلمة الحق في وجه الجبروت.

العالِم الموسوعي

كان الفاروقي مثالاً للعالم المسلم الموسوعي، فهو متضلع في الفلسفة، والأديان، والتاريخ، وفي مختلف العلوم الإنسانية الأخرى، وهو يتقن العربية والفرنسية والإنكليزية ويكتب باللغات الثلاث وكأن كلا منها لغته الأم. يحكي الدكتور جمال البرزنجي أنه استدعى الفاروقي لعشاء في بيته عام ١٩٧٢، وتحدث الضيف أمام جمع من أتباع ديانات شتى لمدة ساعة. وفي ختام الحديث، رفع قسيس يده طالباً التعقيب، فقال: «لقد تعلمتُ عن المسيحية هذه الليلة وحدها

أكثر مما تعلمته في دراستي لها خلال الثلاثين سنة الماضية». خلف الفاروقي ثروة فكرية متميزة، منها خمسة وعشرون كتاباً، وأكثر من مائة بحث ومقال أكاديمي. ولا تزال جل كتبه في أصلها الإنكليزي، وهي بحق مساهمة نوعية في تحرير العقل المسلم وتجديد الفكر الإسلامي. وقد ترجمت له بضعة كتب إلى العربية، منها «أطلس الحضارة الإسلامية». كما تخرج على يديه عدد وافر من العلماء المتخصصين في الأديان. ويمكن إجمال المساهمة التجديدية التي قدمها الفاروقي في أربعة محاور: الحضارة الإسلامية، ومقارنة الأديان، وأسلمة المعرفة، والظاهرة الصهيونية.

الحضارة الإسلامية

ففي مجال الحضارة الإسلامية ألف الفاروقي وزوجته لمياء سفراً ضخماً وقيماً جداً، هو «أطلس الحضارة الإسلامية»، الكتاب الذي «ولد يتيم

الأبوين» كما كتب مقدمُه الدكتور هشام الطالب، لأن الدكتور إسماعيل وزوجته استشهدا والكتاب لا يزال في المطبعة. فكان من نعم الله أن خرج الكتاب شاهدا لهما، وحافظا لجهدهما وجهادهما. وهو عصارة فكرهما في مرحلة النضج والتمكن. ولعل بقاء هذا الكتاب دليل على ما ذهب إليه برويز منصور إذ كتب في نعي الفاروقي: «إن حبر العالِم أقوى من سكين الغادر». ويمتاز هذا الكتاب برحابة النظرة وامتدادها في الزمان والمكان، فالمعرفة الواسعة التي بناها الفاروقي في تاريخ الأديان، خصوصاً اليهودية والمسيحية، والخبرة العميقة التي اكتسبتها لمياء في الفن والعمارة الإسلامية، جعلتهما يضعان الحضارة الإسلامية في إطار رحب لا مثيل له في الكتابات الشائعة في هذا المضمار، وقد تبنى المؤلفان منهجاً مبتكراً، بيَّنا فيه «السياق» الذي ولدت فيه هذه الحضارة، و«الجوهر» التوحيدي الذي تمحورت حوله، و«الشكل» الذي عبرت به عن نفسها،

و«التجليات» التي ظهرت بها (وهذه هي المحاور الأربعة للكتاب).

مقارنة الأديان

وفي مجال الدراسة المقارنة للأديان حرر الفاروقي «الأطلس التاريخي لأديان العالم» وكتب الفصل الخاص بالإسلام في ذلك الأطلس، كما قدم له بمدخل ضافٍ بين فيه جلال الرسالة الإسلامية وتفوقها على كل الأديان، واحتواءها جميع الفضائل التي جاءت بها الرسالات السماوية السابقة، واعتمادها على العقل والمنطق. كما ألف كتاب «الأخلاق المسيحية» الذي نقض فيه الأساس النظري والتاريخي لهذه الديانة من خلال مصادرها الأولى. وقد حاول عدد من القسس في جامعة ماكجيل التي كتب الفاروقي الكتاب في رحابها أن يمنعوا نشره، قائلين إنه يزلزل الإيمان المسيحي في قلوب قرائه. وللفاروقي كتب أخرى في الأديان، منها «الإسلام

والـديـانـات الأخـرى» و«ثـلاثـيـة الـحـوار الـيـهـودي ـ المسيحي ـ الإسلامي»، كما اشترك في تأليف كتاب «الديانات الآسيوية الكبرى»، هذا إلى جانب كتبه الخاصة بالإسلام، ومنها كتاب «التوحيد ومقتضياته في الفكر والحياة».

أسلمة المعرفة

وفي مـجـال أسـلـمـة الـمـعـرفـة وضـع الـفـاروقـي الأسـس الـنـظـريـة لإعـادة صـيـاغـة الـعـلـوم الإنـسـانـيـة والاجتماعية المعاصرة صياغة إسلامية، بحيث تصبح هذه العلوم رافداً إيجابياً لثقافة المسلمين، لا سيلا جارفاً يسلبهم هويتهم ودينهم وثقتهم في الذات. وقد شخص الفاروقي داء المسلمين المعاصرين في نظامهم الفكري والتعليمي السائد، وانعدام الدافع القوي والفكرة المحركة في ثقافتهم. وندد بازدواجية التعليم بين ديني تقليدي ومدني معاصر، مما أنتج ذاتاً منشطرة مهزوزة، لا تحسن غير التقليد: تقليد الأجداد الذين

رحلوا، أو الغربيين المختلفين دينياً وثقافياً. بينما المطلوب هو تعليم واحد تسري فيه الروح الإسلامية من خلال تدريس مادة الحضارة الإسلامية في كل الجامعات والأقسام بغض النظر عن التخصص. أما المتخصصون في الدراسات الإسلامية فلا بد أن يتضلعوا بالعلوم الإنسانية الحديثة لإثراء ذواتهم وبناء قدراتهم النظرية لتكون على مستوى الثقافة العقلية المعاصرة. وقد أسس الفاروقي مع الدكتور عبد الحميد أبو سليمان المعهد العالمي للفكر الإسلامي ليكون مركز تنظير وتخطيط للثقافة التركيبية التي يحتاجها المسلمون اليوم.

الظاهرة الصهيونية

وفي مجال التعريف بالظاهرة الصهيونية كتب الفاروقي ثلاثة كتب هي: «الإسلام ومشكلة إسرائيل»، و«أصول الصهيونية في الدين اليهودي»، و«الملل المعاصرة في الدين اليهودي». وكان طرحه متميزاً

بالعمق والرحابة، وإن لم تخل نبرته من مرارة الظلم.
كان الفاروقي متضلعاً بتاريخ الديانة اليهودية وبتطور الحضارة الغربية، وقد وضع الصهيونية في ذلك السياق التاريخي، وتوصل إلى أن المسلمين يسيئون فهم أهم عدو لهم اليوم وهو إسرائيل، بالنظر إليها على أنها مجرد ظاهرة استعمارية غربية أو مجرد تكرار للحروب الصليبية، وهي كل ذلك وأكثر بكثير. ثم وضع ميلاد إسرائيل في سياق ثلاثة أفكار مهمة هي: عقيدة «الانتقال الوجودي للخطيئة» ontological passage of guilt في المسيحية، وتراجع وعود عصر الأنوار الأوربية عن تحقيق المساواة لليهود، ثم المركزية العرقية في الديانة اليهودية. وهكذا اقتلع اليهودي جذوره من أوربا وزرعها في فلسطين وهو محمَّل بكل هذه الأثقال. لكن الحقيقة أنه فعل ذلك متأخراً جداً، وأن عمله هذا مجرد حل مؤقت ويائس لن يكون هو الحل النهائي للمعضلة اليهودية. فتلك معضلة مسيحية

غربية لا يمكن حلها على حساب أمة عظيمة تتقدم اليوم إلى مسرح التاريخ من جديد.

رحم الله الشهيد إسماعيل الفاروقي.. حامل همِّ الشرق في الغرب.

(٥)
علي عزت بيغوفيتش
إسلامي بأفق إنساني

ولد السياسي والمفكر المخضرم علي عزت بيغوفيتش عام ١٩٢٥ في بلدة (بوسانا كروبا) في شمال غرب البوسنة، لأسرة عريقة في تاريخ الإسلام بالبلقان. وكانت أمه على قدر من الورع والتقوى، فغرست في قلبه حب الإسلام. فعشق القرآن، وخصوصا سورة الرحمن، وهو صبي يافع. ثم أسس مع زملاء له في الثانوية نادي «الشبان المسلمين» وهو طالب، وتوسع النادي فيما بعد ليصبح جمعية ثقافية وخيرية، ويجتذب العديد من طلاب جامعة سراييفو التي درس فيها علي عزت القانون، وأدت الجمعية

خدمات اجتماعية جليلة خلال الحرب العالمية الثانية. وحينما احتلت النازية الألمانية مملكة يوغوسلافيا وأحالتها جمهورية فاشية، قاطعت جمعية الشبان المسلمين النظام الفاشي، وضايقها هذا النظام فحرمها من الشرعية القانونية. تخرج علي عزت محامياً، وجهد في إتقان اللغات الأوربية الأساسية، ومنها الألمانية والفرنسية والإنكليزية، كما بنى بجهده الخاص ثقافة رصينة في العلوم الاجتماعية والفكر الإسلامي والأدب حتى أصبح ضليعا بهذه العلوم، كما تشهد به كتبه، خصوصا «الإسلام بين الشرق والغرب» و«هروبي إلى الحرية».

متحدِّي الزحف الأحمر

بدأت محنة المسلمين في يوغوسلافيا تتعمق أكثر بعد الحرب العالمية الثانية، حينما استولى الحزب الشيوعي بقيادة جوزيف تيتو على السلطة، وفرض نظاما قمعياً مناهضاً للإسلام، واعتقل عددا وافرا من

قادة المسلمين وأعدم العديد منهم، أما جمعية الشبان المسلمين، ذات المنهج الثوري واللغة السياسية الصريحة، فكانت الوطأة عليها أقوى، فاعتقل منها النظام الشيوعي حوالي الألفين منهم علي عزت، الذي مكث في السجون الشيوعية خمسة أعوام (١٩٤٩ ـ ١٩٥٤). وبعد خروجه من السجن بدأ علي عزت العمل محاميا عام ١٩٦٢، وواصل عمله الفكري الإسلامي، من خلال الكتابة المنتظمة في مجلة «تاكفين» التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين في يوغوسلافيا. وقد صدرت مجموعة من مقالاته في كتاب بعنوان «البيان الإسلامي» عام ١٩٨١، فأثار الكتاب ثائرة السلطة الشيوعية التي رأت فيه نوعا من المناهضة للشيوعية، خصوصاً بعنوانه المثير الذي يشبه المناقضة لعنوان «البيان الشيوعي» الذي أصدره كارل ماركس وفريديريك أنغلز عام ١٨٤٨، وأصبح إنجيل الحركة الشيوعية. حوكم علي عزت محاكمة صورية وحكم عليه عام ١٩٨٣ بالسجن لمدة أربعة عشر

عاما، فمكث خمس سنوات كالحة في السجون الشيوعية للمرة الثانية. ومع انهيار الشيوعية عام ١٩٨٩ خرج من السجن بعد إعادة محاكمته وتبرئته، وبدأ العمل السياسي في أجواء الانفتاح الجديد. فأسس حزباً سياسياً، وفاز برئاسة جمهورية البوسنة طيلة عقد من الزمان (١٩٩٠ ـ ٢٠٠٠). ثم رحل عن عالمنا عام ٢٠٠٣ مخلِّفا ذكرى عطرة وأثراً لا يندثر.

قاهر بربرية الحضارة

تفاءل مسلمو البوسنة بسقوط الشيوعية خيراً، وحسبوا أنهم دخلوا عالم الحرية الموعودة التي طالما انتظروا إسفار فجرها على بلدانهم. بيد أن عدواً جديداً أطل برأسه القبيح، فكان أبشع من الشيوعية وأكثر دموية، وهو الفاشية الصربية، التي سعت إلى استئصال الإسلام من يوغوسلافيا، مدفوعة بأحقاد دفينة ترجع إلى ميراث العصور الخوالي من الصراع بين المسلمين الأتراك والمسيحيين السلافيين في

البلقان. وقد تواطأت أوربا مع الصرب بحصار المسلمين وحرمانهم من أي سلاح يمكنهم من الدفاع عن وطنهم المستباح. وبينما كان المسلمون يبادون كان بعض القادة الأوربيين يتحدثون عن خطر وجود «دولة إسلامية» في أوربا!! وكان على علي عزت أن يقود شعبه في معركة موت أوحياة، انتهت باستقلال البوسنة، لكن بعد تضحيات جسام، وبحور من الدماء في سبرنيستا وغيرها.

كان علي عزت أبياً في تواضع، صلباً في حكمة. صمد في السجن أمام الإغراء والإغواء، وصبر خارج السجن في البأساء والضراء. جمع بين العلم والعمل، بين الفكر والالتزام بالقضية. كان شديد الذكاء، عظيم الشجاعة، لكنه كان يقدر الشجاعة أكثر من الذكاء، وقد كتب يقول: «لم يغنِّ الشعب للذكاء، وإنما غنَّى للشجاعة... لأنها الأكثر ندرة». وفي أحلك المحن التي واجهها ظل علي عزت ذلك الرجل ذا القلب الكبير الذي لا يحمل حقداً

حتى ضد أعدى أعاديه. وقد كتب عن نفسه بحق: «لا كراهية لدي، وإنما لديَّ مرارة»، «لا أتذكر بأني احتقرت أحداً». ولم يكن يرى العدالة انتقاما، بل إرجاعاً للأمور إلى نصابها، مع العفو والصفح حالما يرتفع الظلم عن المظلومين. وفي ذلك يقول: «الطريقة الوحيدة للانتصار على الظلم هي التسامح... أليست كل عدالة ظلماً جديداً؟». وبهذا العقل الواسع والقلب الكبير قهَر علي عزت بربرية الحضارة التي أرادت استئصال شعبه تحت سمع وبصر العالم.

عاشق الحرية السجين

كان علي عزت عاشقا للحرية التي يراها جوهر إنسانية الإنسان، كما كان يرى الدكتاتورية أعدى أعادي الإنسان. وكان يعتبر ملكة التفكير مصدرَ قوة الكائن البشري ومنبعَ حريته التي لا تستطيع قوة القهر المادي سلبها. ولذلك كتب متحدثا عن نفسه في السجون الشيوعية: «لم أستطع الكلام، لكني استطعت

التفكير. وقررت استغلال هذه الإمكانية حتى النهاية.»
وقد حاولت السلطة الشيوعية استدراجه إلى نوع من المساومة على مبادئ الإسلام والحرية فلم تجد منه سوى الصدود والإباء. كتب في دفتره المخفي بالسجن: «اليوم هو ٢٧ شباط ١٩٨٧م: وهو يوم قليل الإثارة. طلبوني في الصباح لإدارة السجن واضطربتُ، لأنه لم يكن وقت زيارة. وفي غرفة اللقاءات وجدت ليلى وسابينا [ابنتيْه] بوجوه مرحة. أرادتا فوراً وربما على المدخل أن تقولا بأن لا شيء مكروهاً قد حصل. ثم تحدثتا لي كيف أن (نيقولا ستويانوفيتش) رئيس لجنة الاسترحام في رئاسة جمهورية البوسنة اقترح استدعاء للاسترحام، وسيتم الإفراج عني. وكان الوسيط (زدرافكو جوريتشش) سكرتير اللجنة آنذاك هو زميل ليلى في الدراسة، الذي كتب الاستدعاء. وقرأت النص، ولم أوقع، واستمر السجن». لقد طلبوا منه التوقيع على استرحام من سجانيه، وعلى التزام باعتزال السياسة والشأن العام، فرفض بإباء، ومكث في السجن عامين آخرين جراء ذلك.

وقد علَّمتْه محنة السجن الكثير. وكان يكتب بعض الخواطر وهو سجين، ويخفيها عن أعين سجانيه. ونشرتْ هذه الخواطر فيما بعد ضمن كتابه (هروبي إلى الحرية). وهي تدل على إيمان راسخ، وعقل ثاقب، وفهم عميق للحياة وابتلاءاتها. وفي اثنتين من هذه الخواطر كتب: «السجن يقدم معرفة يمكن أن يقال عنها إنها مؤلمة للغاية»، «يعاني الإنسان في السجن من نقص في المكان وفائض في الزمان».

حامل الرسالة الإنسانية

كان علي عزت بيغوفيتش إسلامياً في العمق، لكن بأفق إنساني رحب. ويحتار المطالع لتراثه من سعة اطلاعه على الثقافة الإنسانية. فهو ضليع في الفلسفة، والأديان، والقانون، والتاريخ، والأدب، والرسم. وتدل هوامش كتبه وثراء استشهاداته وملاحظاته على اطلاع مذهل على ثمرات الفكر الإنساني في الشرق والغرب، وعقل منهجي ناقد لما

قـرأ، مـتـمـثـل لـه فـي ذاتـه. وكـان يـرى أن ركـام المعلومات من غير هضم عبء على حامله، وليس من المناسب تسميته معرفة أصلا. وقد كتب في ذلك: «المعرفة المفرطة تخنق أحياناً الفكرة الإبداعية... يمكن للإنسان أن يمتلك المعرفة في عدة مجالات، لكن من غير تنظيم وبدون رؤيا... الكثير من المتعلمين عاشوا وماتوا بدون معرفة حقة... كومة من المواد الجيدة بدون مخطط تبقى كومة فقط».

أسهم علي عزت إسهاماً جليلاً في الفكر الإسلامي والإنساني من خلال كتبه. وأهم هذه الكتب هي (الإسلام بين الشرق والغرب) و(هروبي نحو الحرية)، ثم (البيان الإسلامي). آمن إيماناً عميقاً بالإسلام رسالة إنسانية، تحتاجها البشرية اليوم حاجة مُمضَّة. وقد قدم الإسلام بصفته طريق الوسطية بين المادية العمياء التي تغلِّف الأفق الإنساني وتحجب رؤيته، والروحانية العرجاء التي تؤصِّل الانهزامية والانسحاب من معركة الحياة. فالإسلام هو «الطريق

الثالث» كما يدعوه علي عزت.. الطريق الذي لا يشطر الذات الإنسانية شطرين، بل يصوغها صياغة متزنة، تجعلها قادرة على التوفيق بين واقعها المتناهي وأفقها اللامتناهي. فالروحانية الواقعية هي أهم سمات الإسلام، والإنسان الكامل في الإسلام ـ كما يراه علي عزت ـ ليس القديس، بل المؤمن الواقعي القوي، الملتزم برسالته الاجتماعية ودوره في الحياة. ولو فهمنا الإسلام حق الفهم ـ يقول علي عزت ـ فسنجد أن الإنسان الواقعي الملتزم أعظم من القديس، وأن ذلك هو السر وراء أمر الملائكة المعصومين بالسجود لآدم الخطَّاء.

رحم الله علي عزت بيغوفيتش.. قاهر بربرية الحضارة بإيمانه الإسلامي وأفقه الإنساني.

(٦)

محمد أسد

الباحث عن ملة إبراهيم

إن أهم ما في حياة محمد أسد المديدة ورحلته الروحية الثريّة هو أنه مفكر يهودي أصرّ على البحث عن ملة إبراهيم، حتى وجدها طريّة في الإسلام، لم تغْشَها غواشي التاريخ أو تعبثَ بها أيدي الزمان. ثم ظل حاملاً حاملاً لرسالة الإسلام، وفياً لأُمَّته طيلة عمره الطويل العريض.

ولد محمد أسد عام ١٩٠٠ ببلدة (لمبرغ) في أوكرانيا، يوم كانت جزءاً من الامبراطورية النمساوية، وسماه أبواه (ليوبولدْ وايسْ) وهو الاسم الذي عرف به

إلى أن اعتنق الإسلام. كانت أسرته أسرة يهودية عريقة في دراسة التوراة والتلمود، وكان من بين أجداده أحبارٌ عُرفوا بتضلعهم في الديانة اليهودية. . فتلقّى أسد تعليماً رصيناً في اليهودية طبقاً لتقاليد عائلته المتدينة، وتعلم اللغتين العِبْرية والآرامية في طفولته، ثم انتقل وهو فتى إلى فيينّا حيث درس الأدب والفلسفة. وفي العشرين من العمر انتقل إلى برلين حيث عمل صحفياً بإحدى الصحف الألمانية.

في عام ١٩٢٢ سافر أسد لزيارة عمٍّ له في فلسطين، وهناك بدأ يراسل صحيفة (فرانكفورتر زيتونغ) الواسعة الانتشار، مما أتاح له التجوال في الشرق العربي، وإطْلاع الغرب على جوانب مجهولة من حياة الشرق الاجتماعية وخزائنه الثقافية. وقد جُمعتْ بعض مقالاته في كتابه (الشرق غير الرومانسي) الصادر عام ١٩٢٤، والذي لم يترجم بعدُ إلى العربية في حدود ما أعلم.

وفي فلسطين بدأ محمد أسد يكتشف ملة إبراهيم

وميراثَه. فقد لاحظ ـ وهو اليهودي الأوربي ـ الفرق الكبير بين اليهود المهاجرين إلى فلسطين من أوربا وبين سكان القدس الأصليين من العرب، وكتب أنه أدرك ـ وهو يتفرس وجوه الناس ويتأمل حياتهم في طرقات القدس العتيقة ـ أن شخصية إبراهيم عليه السلام تتجسد في وجوه العرب وسحناتهم وشمائلهم، فهم أبناء إبراهيم حقا، أما بنو جلدته هو من اليهود الأوربيين المستعمِرين فهم غرباء أدعياء، قد انبتَّت الصلة بينهم وبين إبراهيم عليه السلام منذ حقب متطاولة.. وقد منحته تلك الأعوام في فلسطين ومصر خبرة بالشرق العربي، وحبا للعرب صاحبه إلى الأبد.

الطريق إلى مكة

رغم الميراث الديني اليهودي العريق المتوارث في أسرته، فإن محمد أسد لم يجد روحه الإنسانية الوثابة منسجمة مع الأطر الضيقة للديانة اليهودية. فقد لاحظ أن اليهود أمَّموا الدين لصالح الاستعلاء العرقي

الذي تشبعوا به، حتى إن فكرة خالق الكون المتعالي تحولت في ثقافتهم إلى فكرة عِرْقية محضة، فأصبح الإله في الثقافة اليهودية لا يهتم إلا «بمصير شعب واحد من شعوب البشر، وهو الشعب العبري»، بل تحول إله الكون عندهم «إلهاً قبَلياً، يصوغ مصائر الخلائق كلهم طبقا لمتطلبات وجود شعب مختار واحد» حسب تعبيره. وربما كان هذا الاستياء من النزعة العرقية الضيقة التي سادت في العقيدة اليهودية هي التي دفعت أسد إلى البحث عن معنى الحياة والقيم الإنسانية الكونية في الإسلام.

دخل الإسلام قلب محمد أسد عام ١٩٢٦ وهو في برلين، حينما كان يقرأ ترجمة سورة (التكاثر)، وقد كتب عن انطباعه بعد قراءة السورة: «هذه ليست حكمة رجل عاش في الجزيرة العربية في القرون الخوالي.. إن صوت القرآن أكبر من أن يكون صوت محمد [ﷺ]». ونفَر أسد إلى الحج فور إسلامه، رفقة زوجته الأولى (إيلسا) التي أسلمت معه لله، ثم

أسلمت الروح لبارئها بعد بضعة أيام من أدائهما فريضة الحج. لكن أسد قرر أن يبقى بين إخوانه في الدين، ويبذل الجهد في نصرة العقيدة التي لامستْ شغاف قلبه، وفي رفعة الأمة التي انتمى إليها اختيارا.

ولم يكن إسلام محمد أسد عن تقليد أو انبهار برومانسية الشرق في لحظة حالكة من تاريخ الغرب، فلم يكن أسد بالرجل الرومانسي، ولذلك جاء أول كتبه عن الشرق بعنوان (الشرق غير الرومانسي)، وإنما كان رجلا نبيلاً يبحث عن معنى الحياة وفضائلها الفطرية، فوجد ذلك في الملة الإسلامية فآمن بها بعمق، وفي شمائل العرب فأحبَّها بصدق. لقد كان إسلامه قراراً واعياً مبنياً على فهم لمعنى الحياة ومغزاها. وقد كتب أسد عن ذلك يقول: «لم أصبح مسلما لأني عشتُ زمنا طويلا بين المسلمين، بل كان الأمر عكس ذلك، ذلك أنني قررت أن أعيش بينهم لأنني اعتنقتُ الإسلام» (الطريق إلى مكة، ص٢٠).

وهكذا عاش أسد في الجزيرة العربية ستَّ

سنين، عمَّق فيها معرفته باللغة العربية وتولَّه بالثقافة الإسلامية، وقد وصف بقلمه الأخاذ مغامراته وأسفاره في صحراء النفود وغيرها في كتابه (الطريق إلى مكة) الذي نعود هنا لترجمته المعنونة (الطريق إلى الإسلام). وتعرَّف أسد على الملك سعود بن عبد العزيز، وابنه الأمير (الملك فيما بعد) فيصل، وتزوج أسد زوجته السعودية (منيرة) التي أنجبت له ابنه طلال الأسد، عالم الأنثروبولوجيا المشهور والأستاذ بجامعة نيويورك.

أسد مع أسد الصحراء

ومن المشاهد المثيرة والكاشفة عن شخصية محمد أسد الصلبة وإيمانه العميق بعقيدته وأمته الإسلامية، رحلتُه الشاقة الخطرة من الحجاز إلى ليبيا، للقاء شيخ المجاهدين عمر المختار. فقد تعرَّف أسد خلال مُقامه بالحجاز على أحمد الشريف، شيخ السنوسية المغترب بأرض الحرمين، فأسَر قلبَه بنبله

وفضله. وقد كتب أسد عن السنوسي قائلاً: «ليس في الجزيرة العربية كلها شخص أحببتُه كما أحببتُ السيد أحمد. ذلك أنه ما من رجل ضحَّى بنفسه تضحية كاملة مجرَّدة من كل غاية في سبيل مثَل أعلى كما فعل هو... كان منفيا سُدتْ في وجهه كل الطرق إلى وطنه في برقة [ليبيا] بعد قتالٍ ثلاثين عاماً... ما من اسم آخر أقضَّ مضاجع الحكام الاستعماريين ذلك العدد الكبير من الليالي في شمال إفريقيا» (الطريق إلى مكة، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤).

وقد طلب الشريف أحمد السنوسي من محمد أسد أن يسافر إلى ليبيا للقاء الشيخ عمر المختار، والاطِّلاع عن كثب على أحوال حركته الجهادية التي كانت تعيش أيام أفولها، وتقديم خطط واقتراحات حول بعثها وتدعيمها. وأحس أسد بنبل الغاية فلم يتردد، وقد كتب فيما بعد إن قوات عمر المختار كانت تقاتل من أجل الحرية والحياة الإسلامية كما فعل الصحابة أول مرة «وإن إسداء المعونة إليها في

صراعها العنيف المرّ ـ مهما تكن النتيجة مشكوكا فيها ـ ضروري لي، كالصلاة سواءً بسواء» (الطريق إلى مكة، ص٢٦٨).

وبعد مغامرة خاض فيها لجج البحر الأحمر في سفينة خشبية متهالكة، وشق صحراء مصر وليبيا الحارقة على ظهور العِيس، كان اللقاء التاريخي بالشيخ عمر المختار، الذي كتب عنه أسد يقول: «وما لبث عمر [المختار] أن جاء على جواد صغير لُفَّتْ حوافره بالقماش، وكان يحيط به رجلان من كل جانب ويتبعه كذلك عدد آخر. وعندما وصل إلى الصخور التي كنا ننتظر عندها ساعده أحد رجاله على النزول، ورأيتُ أنه كان يمشي بصعوبة (عرفتُ بعد ذلك أنه قد جُرح إبان إحدى المناوشات قبل ذلك بعشرة أيام تقريباً). وعلى ضوء القمر المشرق استطعتُ الآن أن أراه بوضوح: كان رجلاً معتدل القامة، قويَّ البنية، ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج، تحيط بوجهه الكئيب ذي الخطوط العميقة. وكانت

عيناه عميقتين، ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء أن يعرف أنهما كانتا ضاحكتين برّاقتين في غير هذه الظروف، إلا أنهما لم يكن فيهما الآن شيء غير الظلمة والألم والشجاعة...» (الطريق إلى مكة، ص٢٧٥).

كانت فكرة السنوسي وأسد هي بعث الحركة الجهادية الذاوية في ليبيا، من خلال تركيزها في منطقة (الكفْرة)، ثم إمدادها بالسلاح والمال من مصر. لكن لما وصل أسد ليبيا كانت بلدة (الكفْرة) قد سقطتْ، وكان الفاشيون الإيطاليون قد أحكموا الخناق على الحدود المصرية الليبية، ومدوا الأسلاك الشائكة على طولها. وأقام محمد أسد مع الشيخ عمر المختار يومين يتداولان حول وسائل إنقاذ الحركة الجهادية، لكن دون جدوى. وبدا أن عمر المختار كان أدرَى بمآل حركته الجهادية التي أوشكت على الغروب، وإن لم يفتَّ ذلك في عضده، أو يُضعفَ من عزيمته، فقد قال الشيخ المجاهد لزائره أسد: «يا ابني، إننا نقترب

بالفعل من نهاية أجَلنا. . . إننا نقاتل لأن علينا أن نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت نحن، وليس لنا أن نختار غير ذلك. إنا لله وإنا إليه راجعون» (الطريق إلى مكة، ص٢٧٧). وحينما أدرك أسد أن المعركة العسكرية في ليبيا قد أصبحت خاسرة في المدى المنظور، عرض على الشيخ عمر المختار أن ينسحب معه إلى مصر لإنقاذ حياته، ومن هناك يسعيان معاً إلى إعادة بناء الحركة الجهادية الليبية، ويحاولان بناء جسور مع الإنكليز المسيطرين على مصر آنذاك للاستفادة من سوء العلاقات بينهم وبين الإيطاليين. . لكن الشيخ عمر المختار أصرّ على البقاء داخل ليبيا بين أتباعه المجاهدين حتى تنتصر قضيته أو يهلك دونها. . واضطر أسد إلى سلوك طريق العودة من حيث أتى، ولم يكن طريق العودة مفروشاً بالورد، حيث اضطر إلى المرور عبر الاسلاك الشائكة وبين نقاط المراقبة الإيطالية. وقد اكتشفته دورية إيطالية هو وثلة من مجاهدي عمر المختار كانوا معه

فهاجمتهم، لكنهم تمكنون من العبور بعد أن فقدوا خمسة منهم شهداء في ساحة المعركة. وبعد ثمانية أشهر على هذه الزيارة الجهادية وقع عمر المختار في الأسْر، ليُقتل شهيدا على أيدي الفاشيين الإيطاليين.

عودة إلى الغرب الإسلامي

وبعد أن بذل أسد ثمنا غاليا في نصرة الإسلام في جزيرة العرب وشمال إفريقيا، اتجه إلى نصرة المسلمين في القارة الهندية، فأوغل في الشرق الإسلامي، فزار إيران وأفغانستان والهند (قبل التقسيم) حيث التقى الشاعر الفيلسوف محمد إقبال الذي اكتشف مواهبه الفكرية وعُمْق الالتزام لديه بقضية الإسلام.. فأقنعه بالاستقرار هناك ليساعد في «وضع الأساس العقلي للدولة الإسلامية» الآتية، جمهورية باكستان (الطريق إلى مكة، ص١٤). وبعد وفاة محمد إقبال وتأسيس دولة باكستان حصل محمد أسد على جنسيتها، وعمل بإدارة (الإحياء الإسلامي) فصاغ

أفكار الدستور الإسلامي المنشود للدولة، وهي الأفكار التي أصبحت فيها بعد قاعدةً نظريةً لكتابه القيم (منهاج الحكم في الإسلام). ثم عمل أسد في وزارة الخارجية الباكستانية مسؤولا عن علاقة باكستان بالعالم العربي، ثم سفيراً لها في الأمم المتحدة في نيويورك. ومما كشفتْه الأيام منذ أعوام قليلة أن الإسرائيلين فكروا في محاولة استمالة محمد أسد أيام عمله سفيراً لباكستان في نيويورك مطلع الخمسينات، ظانِّين ظن السوْء أن في وسعهم استغلال خلفيته اليهودية، بيد أنهم أدركوا في النهاية أن الرجل قد جرَّد ولاءه للإسلام، وأنْ ليس ثمة ما يمكن استغلاله. وفي العام ١٩٥٢ استقال محمد أسد من عمله سفيرا لباكستان في الأمم المتحدة، ليتفرغ لتحرير كتابه (الطريق إلى مكة) وكم هي مباركة تلك الاستقالة التي أثمرت ذلك الكتاب!

ثم رحل محمد أسد إلى اسبانيا عام ١٩٥٥ ليعيش بقية حياته مع زوجته الأميركية المسلمة بولا/

حميدة أسد، مكباً على مشروع عمره الأهم، وهو ترجمة القرآن الكريم وتفسيره باللغة الإنكليزية، وهو ما تحقق في كتابه (رسالة القرآن) الذي هو ترجمة رصينة للقرآن الكريم، مشفوعة بتعليقات معبرة عن سعة معرفة كاتبها، وعن تضلعه بمعاني القرآن وأسرار العربية. وقد اعتمد (مجلس العلاقات الإسلامية الأميريكة) في واشنطن هذه الترجمة، وهو يوزعها اليوم ضمن حملته لتوزيع مليون نسخة من ترجمة الكتاب الكريم.

وبعد عُمر مديد زاد على التسعين عاماً توُفِّي محمد أسد عام ١٩٩٢، ووُوري الثرى في غرناطة، تلك البلدة الذي أحب أن يترسم فيه آثار الحضارة الإسلامية في الأندلس، حتى وهو يعيش خريف عمره في موطنه الأصلي أوربا. وفي العام ٢٠٠٨ سمَّت بلدية فيينَّا أحد أهم شوارعها ـ وهو الشارع المقابل لمبنى الأمم المتحدة ـ باسم (شارع محمد أسد)، واعتبرته ابنها الذي أصبح مواطناً عالمياً، وسعى لبناء الجسور بين الشرق والغرب.

إِلْفان عاشا في وطن

لم يحتمل محمد أسد انشطار الذات الإنسانية في الثقافة الأوربية بين الروح والمادة، ولسان حاله يقول مع جلال الدين الرومي في المثنوي:

لا حجابٌ بين روحي والبدنْ

فهما إِلْفان عاشا في وطنْ

كما لم يحتمل الروح العنصرية البغيضة التي سادت في أوربا مطلع القرن العشرين، وانتهت في صيغتها النهائية في النازية الألمانية. فبحث عن دواء لهذين الدائين، فوجد في الإسلام توحيدا لشطريْ الوجود الإنساني، وتحقيقا للأخوة الإنسانية، وكان ذلك سر انجذابه إلى هذا الدين.

وفي بداية عيشه في الشرق الإسلامي مراسلاً صحفياً مطلع القرن العشرين بدأ أسد يدرك الروح الإسلامية بتدرج، وقد كتب يقول عن أثر مقامه بالشرق: «منذ البداءة الأولى نشأ في نفسي ميل إلى

إدراكٍ للحياة أكثر هدوءا، أو إذا شئت أكثر إنسانية، إذا قيستْ تلك الحياة بطريق الحياة الآلية العجْلى في أوربة. ثم قادني هذا الميل إلى النظر في أسباب هذا الاختلاف. وهكذا أصبحتُ شديد الاهتمام بتعاليم الإسلام الدينية. إلا أن هذا الميل لم يكن في الزمن الذي نتكلم فيه كافياً لجذبي إلى حظيرة الإسلام، ولكنه كان كافياً لأن يعرض أمامي رأياً جديداً في إمكان تنظيم الحياة الإنسانية مع أقل قدر ممكن من النزاع الداخلي، وأكبر قدر ممكن من الشعور الأخوي الحقيقي.» (محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ص١٦).

ومع مرور السنين والتضلع بثقافة الشرق أدرك أسد أن في الإسلام ما كان يبحث عنه من توحيد الخالق ووحدة الإنسانية، وفهم أن «الإسلام يحمل الإنسان على توحيد جميع نواحي الحياة» (الإسلام على مفترق الطرق، ص١٠٢) وأنه «نظام خلُقي وعملي، ونظام شخصي واجتماعي» (الإسلام على

مفترق الطرق، ص٩٨). وفي تأمله لمغزى العبادة الإسلامية وجد محمد أسد أنها نظام بديع مركب من التزكية الروحية والتنظيم الاجتماعي: «إن الفكرة الإسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب، بل تشمل الحياة كلها. أما هدفها فهو جمع ذاتنا الروحية وذاتنا المادية في كل واحد» (الإسلام على مفترق الطرق، ص١٠٦). وهكذا فإن أخص خصائص الإسلام وسر قوته وفتوته وجاذبيته الأبدية هو هذا «التوفيق التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الحياة الإنسانية. هذا سبب من الأسباب التي عملتْ على ظفر الإسلام في إبان قوته أينما حل... إن نبينا الذي كان في رسالته الدليل الهادي للإنسانية كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانية في كلا اتجاهيْها: في المظهر الروحي والمظهر المادي» (الإسلام على مفترق الطرق، ص٩٠).

أما الأخوة الإنسانية التي رآها محمد أسد تداس في أوربا مع الهيجان القومي، فقد وجدها متحققة في

الإسلام أيضا، حيث أدرك أن «القوى الباطنة والتماسك الاجتماعي في العالم الإسلامي كانا أرقى من كل شيء خبره العالم من طريق التنظيم الاجتماعي» (الإسلام على مفترق الطرق، ص٣٩). فلم تعرف حضارة من الحضارات العتيقة امتزاجا للأعراق أكثر مما عرفتْه الحضارة الإسلامية، وذاك أمر لم يخْف على أسد وهو الدارس الجاد لتاريخ الحضارتين الرومانية واليونانية.

انبعاث العالم الإسلامي

وكان من أهم ما حمله محمد أسد بين جنبيه هو ضرورة التجديد الروحي والفكري في العالم الإسلامي، وخصص لذلك كتابيه (الإسلام على مفترق الطرق) و(منهاج الإسلام في الحكم). حيث دعى إلى أن «علينا أن ننفض عن الشريعة تلك الطبقة الكثيفة من التأويلات العرفية التي تراكمت في خلال العصور» (الإسلام على مفترق الطرق، ص١١٨). وقد كره أسد

الكسل العقلي الذي خيم على الأوساط الإسلامية التقليدية فمنعها من الإسهام في حركة الإصلاح والتجديد، لأن «كسل العقل لا يقل في حقيقته عن كسل الجسم» (أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ص١٠٧).

كما كره أسد السطحية التي اتسم بها بعض المسلمين الذين تلقوا تعليما غربيا، فاتخذوا من الثقافة الغربية معياراً كونيا، دون وعي بالزمان والمكان. وقد نبه أسد إلى «المعرفة نفسها ليست شرقية ولا غربية... إلا أن وجهة النظر التي تُرى منها هذه الحقائق وتُعرَض تختلف بختلاف المزاج الثقافي للشعوب» (الإسلام على مفترق الطرق، ص٧٣). وأشد ما أخذه أسد على هؤلاء المتغربة هو أنهم لم يدركوا جلال الرسالة الإسلامية وخلودها، فكتب إن «الفكرة القائلة بأن بعض أوامر القرآن الكريم قد قُصد بها العرب الذين عاصروا نزول الوحي، لا النخبة من الأكياس (الجنتلمان) الذين يعيشون في القرن

العشرين. . . بخسٌ شديد لقدْر النور النبوي الذي قام به المصطفى ﷺ» (الإسلام على مفترق الطرق، ص٩٠ ـ ٩١).

والسر في هذا الموقف المتضعضع من هؤلاء ـ في نظر أسد ـ هو ضعف الثقة بالنفس ونقص احترام الذات، فهو يرى أنه «كيما يستطيع المسلم إحياء الإسلام يجب أن يعيش عاليَ الرأس» (الإسلام على مفترق الطرق، ص٨٥)، كما يرى أنه «ما من مدنيّة تستطيع أن تزدهر أو أن تظل على قيد الوجود بعد أن تخسر إعجابها بنفسها وصلتها بماضيها» (الإسلام على مفترق الطرق، ص٨٦).

لقد أدرك أسد المتضلع بثقافتيْ الشرق والغرب أن البشرية مهما رقت في مدارج حضارتها فإنها ستظل تجد في رسالة الإسلام الجواب الوافي والبلسم الشافي: «ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية ـ مع نموها الحاضر ـ استطاعت أن تشبَّ عن الإسلام، بل إنها لم تستطع أن تخلق نظاما خلُقيا

أحسن من ذلك الذي جاء به الإسلام» (الإسلام على مفترق الطرق، ص١١٤).

رحم الله محمد أسد، الباحث عن ملة إبراهيم..

(٧)
محمد حميد الله
راهب العلم المُتبتِّل

عاش الدكتور محمد حميد الله عمراً مديداً، بنفس أبيّة، وعلم غزير، وقلب واجف متبتّل. ترك الدنيا وراء ظهره، وانكبّ على العلم والتعليم وخدمة الإسلام. فكان مثالاً للعالِم الموسوعي المتبحّر الذي لا يجد لفضوله المعرفي نهاية، والعابد الزاهد الذي لا تساوي الدنيا عنده نقيراً. ولد عام ١٩٠٨ في حيدرآباد بجنوب الهند، وهو ينتسب إلى أسرة ترجع جذورها إلى قبيلة قريش. وقد هاجرت أسرته من الحجاز إلى البصرة خوفاً من بطش الحجاج بن يوسف، ثم استقر المقام بسلالتها في الهند خلال

القرن الثامن الهجري. وتحدَّر من هذه الدوحة النبيلة قضاةٌ ورجال دولة، وعلماء أعلام ذاع صيتهم في الهند على مدى قرون من الحكم الإسلامي لها. وكان من آخرهم الشيخ حبيب الله أخو الدكتور محمد حميد الله الأكبر، وهو مترجم كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري إلى اللغة الأوردية، والشيخة أمَة العزيز، أخته الكبرى، ومترجِمة (شرح النووي على صحيح مسلم) إلى الأوردية.

نهم للعلم لا ينقضي

لم يكن نهم محمد حميد الله للمعرفة يعرف حدوداً، فقد حصل على شهادتيْ ليسانس، وشهادتيْ ماجستير، وشهادتيْ دكتوراه، وتعلم حوالي عشرين لغة، منها العربية والأوردية والفارسية والتركية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والروسية والبولونية والدانمركية والسويدية والفنلندية. وكان من آخر ما تعلم من اللغات اللغة التايلندية التي

درسها بعدما تجاوز عمره الثمانين. وبعد حصوله على كل هذه الشهادات العلمية سافر إلى موسكو لدراسة اللغة الروسية، وسعى إلى الحصول على شهادة الدكتوراه من جامعتها، لولا أن ظروف الحرب العالمية الثانية حرمته من ذلك. فكَرَّ إلى المدينة المنورة ولزم شيخ قرائها حسن بن إبراهيم الشاعر حتى حصل منه على إجازة في القرآن الكريم كانت أثمن شهاداته وأحبّها إلى قلبه..

تلقى محمد حميد الله تعليمه الإسلامي الأول باللغة الأوردية في (دار العلوم الشرقية)، وفيها ألَمَّ باللغات العربية والفارسية والانكليزية. ثم التحق عام ١٩١٩ بـ(المدرسة النظامية) إحدى أعرق المؤسسات العلمية الإسلامية في الهند، وحصل منها على ليسانس عام ١٩٢٣. وبعد ذلك بعام التحق بـ(الجامعة العثمانية) التي أسسها الأمير عثمان علي خان في حيدرآباد عام ١٩١٨، وحصل منها على ليسانس أخرى عام ١٩٢٨ وهو في العشرين من العمر. ومن

نفس (الجامعة العثمانية) حصل محمد حميد الله على شهادتيْ الماجستير: الأولى في الدراسات الإسلامية، والثانية في القانون الدولي. وفي عام ١٩٣٢ ابتعثت الجامعة العثمانية طالبها اللامع ليطّلع على المخطوطات الإسلامية في تركيا ومصر وسوريا والسعودية. ومن اسطنبول استدعاه المستشرق الألماني (فريتزْ كرْنِكو) لاستكمال دراسته العليا في جامعة (بونْ)، فحصل منها على شهادة دكتوراه عن موضوع (مبدأ الحياد في القانون الدولي الإسلامي)، ودرّس فيها اللغتين العربية والأوردية لعامين. وفي العام ١٩٣٤ التحق بجامعة (السوربون) الفرنسية، فحصل منها على شهادته الثانية للدكتوراه عن رسالته المعنونة: (الدبلوماسية الإسلامية في العصر النبوي والخلافة الراشدة) وهي التي أصبحتْ فيما بعد كتابَه الأشهر باللغة العربية (مجموعة الوثائق السياسية للعصر النبوي والخلافة الراشدة).

وعاد محمد حميد الله إلى حيدرآباد عام ١٩٣٥

حاملا معه علما واسعا، وخبرة بالعالم، وتمرسا بالحياة، على حداثة سنه يومذاك. فعمل محاضرا في قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة العثمانية بحيدرآباد، وعميدا لكلية القانون بها إلى حدود العام ١٩٤٨.

عزة نفس وإباء

كان محمد حميد الله من أشد المدافعين عن استقلال إمارة حيدرآباد الإسلامية عن دولة الهند، وهي إمارة لعبت دوراً تاريخياً مجيداً في تاريخ المسلمين، وكانت مركزاً مزدهراً من مراكز الحضارة الإسلامية في القارة الهندية، فحريٌّ بها أن تبقى منارة إسلامية. فسافر إلى الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ ضمن وفد دبلوماسي يسعى إلى الاعتراف باستقلال الإمارة بعد استقلال الهند عن التاج البريطاني، ورفْض الإمارة الانضمام إليها. وحينما اجتاحت القوات الهندية الإمارة وفشل الوفد في الحصول على الاعتراف باستقلالها قرر محمد حميد الله بإباء أن لا تطأ قدمه

أرض الهند بعدها، وهو قرار التزم به طول عمره المديد، رغم تجواله في أرجاء الأرض.

عاش العلامة حميد الله في فرنسا مدة مديدة ناهزت نصف القرن (١٩٤٨ ـ ١٩٩٦) احتفظ خلالها بجنسيته الحيدرآبادية، ورفض عرضا من الحكومة الفرنسية ومن حكومات دول إسلامية عدة بمنحه الجنسية، عزةَ نفس وإباءً، ووفاءً لموطنه المغدور حيدرآباد. واكتفى بوثيقة إقامة في فرنسا حملها معه أكثر من نصف قرن.

ولم يترك حميد الله فرنسا إلا بعد أن أعياه رهَق السنين، واستنزف عمرَه البحث العلمي الدائب والعملُ الدائم لخدمة الإسلام. فقد ألحّت عليه حفيدة أخيه السيدة المفضالة (سديدة عطاء الله) المقيمة في الولايات المتحدة بمصاحبتها إلى هناك حرصا على صحته المنهَكة ورحمة بضعفه وكبره، فقبل توسُّلاتِها بعد لَأْيٍ عام ١٩٩٦، وأقام معها سنوات عمره الأخيرة، حتى رحل بنفس مطمئنة عن هذه الدنيا، في

مدينة جاكسونفيل بولاية فلوريدا الأميركية عام ٢٠٠٢، مخلفاً وراءه ذكرا عطِراً وأثراً لا يمَّحي. وقد ذكرتْ ابنة أخيه البارّة سديدة عطاء الله في عدد خاص من مجلة Impact International مخصص لرثاء محمد حميد الله، أنه كان يمازحها شفقةً بها فيقول: «سأُفاوض ملَك الموت بكل ما أستطيع من حُجّة، لكي لا يقبض روحي بحضورك».. وقد تحققتْ أمنيته، فتوفاه الله في نومه ضحًى وهي غائبة عن البيت.

على درب الزاهدين

كان محمد حميد الله عابداً زاهداً متواضعا بَرّاً موطَّأ الأكناف، حتى إنه كان يخرج مع الشباب المسلم في المخيمات الثقافية بفرنسا ـ وهو أستاذ بجامعة السوربون ـ فيغسل آنية الطعام بيده، ويجلس معهم على الأرض كواحد منهم، على مكانته العظيمة في العلم والشهرة. وحينما دخل (دار المصنِّفين) ـ

إحدى أشهر المؤسسات العلمية بالقارة الهندية ـ دخلها حافيَ القدمين، وعلَّل ذلك بأنه يكره أن يدخل منتعلاً إلى دار أُلِّف فيها كتابٌ في السيرة النبوية، يقصد كتاب (سيرة النبي ﷺ) للعلامة سليمان الندوي في سبعة مجلدات. وكان شديد الزهد والاحتساب، حتى إنه عندما عُرض عليه الترشح لجائزة الملك فيصل رفض بشدة، وقال: «أنا لم أكتب ما كتبت إلا من أجل الله ﷻ، فلا تفسدوا علي ديني».

تبتل في محراب العلم

يعتبر الدكتور محمد حميد الله من العلماء المكثرين من التأليف، كيف لا وقدْ أوقف حياته الطويلة العريضة على البحث العلمي والكتابة، حتى إنه عاش عزَباً طيلة عمره، فكان حريّاً بالشيخ الحافظ عبد الفتاح أبي غُدَّة أن يترجم له في كتابه الفريد في بابه: (العلماء العُزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج). وقد ألّف حميد الله وحقّق عشرات المجلدات، وكتب

حوالي ألفِ مقال، واشترك في كتابة وتحرير عدد من الموسوعات، منها (دائرة المعارف الإسلامية) باللغة الأوردية، و(الأطلس الكبير للأديان) باللغة الفرنسية.

جمع حميد الله بين العمق والامتداد فيما كتب: فقد أعانتْه معرفته الموسوعية على الكتابة في علوم إسلامية شتى، ومكّنه دأبُه وجِدُّه العلمي من تقديم أعمال علمية تأسيسية في بابها:

ـ ففي خدمة القرآن الكريم أسهم بترجمته البديعة للكتاب العزيز إلى اللغة الفرنسية، وقدَّم لها بمقدمة ضافية في علوم القرآن وتاريخه. ولم تكن توجد ترجمة ذات قيمة للقرآن الكريم إلى هذه اللغة المهمة، إلا ما كان من أعمال استشراقية شابها التحيز وضعف التذوق للغة القرآن. وقد اشتهرت تْرجمة حميد الله، وانتشرتْ بين المسلمين الناطقين بالفرنسية في فرنسا وكندا وغرب إفريقيا، ثم اعتمدها مجمعُ فهد لطباعة المصحف الشريف، وطبَعها بأعداد وفيرة. كما تتبَّع حميد الله في كتابه (القرآن بكل لسان) تاريخ ترجمة

القرآن الكريم، وقدّم جردا لترجمات الكتاب الكريم إلى حوالي مائة وخمسين لغة.

ـ وفي علوم الحديث الشريف كشف حميد الله النقاب عن أقدم نص مسند من حديث رسول الله ﷺ، وهو صحيفة التابعي همام بن منبّه الصنعاني (ت ١٠١هـ)، التي رواها عن الصحابي أبي هريرة رضي الله عنه. فبرهن حميد الله بذلك ـ بخلاف ما هو شائع من الرأي ـ على أن تدوين الحديث النبوي بدأ في حياة الصحابة رضي الله عنهم، وهو ما يزيد الثقة في تاريخ السنة وإسنادها. كما ألف حميد الله كتاباً عن ترجمات المستشرقين لصحيح البخاري، تتبَّع فيه الخلل في تلك الترجمات، وصححها بعقل منصف وقلب مؤمن.

ـ وفي السيرة النبوية حقق محمد حميد الله سيرة ابن إسحاق (ت١٥١هـ)، وقد وأعاد هذا النص العتيق إلى خضم الحياة العلمية الإسلامية، بعد أن أهمله الناس اعتماداً على سيرة ابن هشام (ت ٢١٣هـ) المتأخرة عنها. كما ألف الدكتور حميد الله كتاباً من

أمتع وأجمع ما كُتب في السيرة النبوية، وأحسنه حبكة وترتيبا، وهو كتابه (رسول الإسلام: حياته وآثاره) Le Prophète de l'Islam: Sa vie, son oeuvre في مجلدين، ولم يُترجم هذا الكتاب إلى الغة العربية في حدود علمي حتى الآن. ومن إسهاماته في السيرة النبوية أيضا كتاب (نظام التربية والتعليم في عصر النبي ﷺ) وكتاب (ميادين الحرب في العصر النبوي).

ـ وفي مجال الفقه السياسي ألف حميد الله عدة كتب أهمها ثلاثة، هي كتاب (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) وهو مصدر قيم وكنز ثمين من الوثائق الأصلية التي لا يستغني عنه أي باحث جاد في الفقه السياسي الإسلامي والتأصيل للعلاقات السياسية بين المسلمين وغير المسلمين. ثم كتاب (أول دستور مكتوب في العالم) the First Written-Constitution in the World وهو تحقيق لوثيقة دستور المدينة في العصر النبوي، وترجمة لها إلى اللغة الإنكليزية، مع مقدمة ضافية بيَّن فيها المؤلف أسبقية الإسلام إلى فكرة العقد

الاجتماعي الذي يؤسس لبناء السلطة وأدائها على أساس التعاقد والتراضي بين الحاكم والمحكوم، قبل عصر جون هوبز وجان جاك روسو بقرون متطاولة. ثم كان عمله الثالث المتميز في الفقه السياسي هو دراسته المعنونة (هل للقانون الروماني تأثير على الفقه الإسلامي)، وفيها بيَّن أصالة الفقه الإسلامي، وردَّ ردّاً مُفحِما على المستشرقين الذي زعموا استمداده من القانون الروماني.

ـ وفي مجال تحقيق كتب التراث العربي حقق حميد الله عددا كبيرا من النصوص التراثية القيمة منها: (السير الكبير) لمحمد الشيباني، و(كتاب الردة) للواقدي، و(أنساب الأشراف) للبلاذري، و(كتاب الأنواء) لابن قتيبية، و(كتاب الذخائر والتحف) للغساني، و(كتاب السرد والفرد) للقزويني، و(كتاب النبات) للدينوري. . . وغيرها كثير.

رحم الله محمد حميد الله. . راهب العلم المتبتِّل.

تم الكتاب
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

عن المؤلف
محمد بن المختار الشنقيطي

أستاذ الأخلاق السياسية المشارك بمركز التشريع الإسلامي والأخلاق، وتاريخ الأديان بكلية الدراسات الإسلامية في جامعة حمَد بن خليفة في قطر. حاصل على الدكتوراه في تاريخ الأديان من جامعة تكساس بالولايات المتحدة. مهتم بالفقه السياسي، وتجديد الدين، والمسألة الطائفية، والعلاقات العربية ـ الأميركية.

من كتبه بالعربية: «الخلافات السياسية بين الصحابة: رسالة في مكانة الأشخاص وقدسية المبادئ»، «أثر الحروب الصليبية على العلاقات

السنية ـ الشيعية» (كلاهما صادر عن الشبكة العربية)، «فتاوى سياسية: حوارات في الدعوة والدولة»، «خيرة العقول المسلمة في القرن العشرين»، «تراكم الهويات وتزاحمها في الفضاء العربي»، «محمد عبد الله دراز فيلسوف القرآن الكريم»، «جراح الروح» (ديوان شعر).

ومن أبحاثه بالإنكليزية: «صلاح الدين الأيوبي في الذاكرة السنية والشيعية»، «نظرة الأميركيين الأوائل للمسلمين»، «رحلة أليمة إلى الخالق: لحظة التحول الروحي بين الغزالي وأغسطين»، «الاستشراق والاستغراب: بين أدوارد سعيد وبرنارد لويس»، «نظرة الأميركيين الأوائل للمسلمين»، «عبِيد الله: الأفارقة المسلمون الأوائل في أميركا».

تُرجمتْ ونشرت جلُّ كتبه ومقالاته إلى اللغة التركية، وتُرجِم بعضها إلى الألبانية والبوسنية والفارسية، كما يُتَرجم البعض منها حالياً إلى اللغة الكردية. وهو يسهم بانتظام في قناة الجزيرة وموقعها

على شبكة الإنترنت، حيث نشر أكثر من خمسمائة مقال تحليلي باللغتين العربية والإنجليزية، كما شارك في العديد من المؤتمرات الإقليمية والدولية.